قلق الانتماء في الخطاب الشعري لمحمد الفيتوري

أستاذ مشارك/ دكتور/ يسن إبراهيم بشير علي
جامعة الملك فيصل / كلّية الآداب/ المملكة العربية السعودية
ysn3ysn71@gmail.com

تاريخ الاستلام : ٢٠١٩/٨/٨
تاريخ القبول : ٢٠١٩/٩/٣٠

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License

الملخص :

يُعنى هذا البحث بدراسة قلق الانتماء لدى الشاعر محمد مفتاح الفيتوري وأثره في شعره، هذا القلق الذي ظهر عنده مبكّراً ولازمه في حياته، وأثّر في سيْرورة إبداعه، وإثراء تجربته في مراحلها وأطوارها المختلفة. وبعبارة أخرى فإنّ هذا البحث يحاول الإجابة عن السؤال حول دور الظروف غير الطبيعية من تنقّلٍ وتغرُّبٍ وتوزّع في الهويّة، في تشكيل رؤية الفيتوري الإبداعية، وما مدى هذا الدور في ثراء تجربته، وتنوُّعها.

وقد جاء البحث في مقدّمةٍ ومبحثيْن، عالجت مفهوم الانتماء، والظروف التي أثارته لدى الشاعر حتى غدا قلقاً تجلّى في إبداعه الشعري، وأسهم في إبراز وكشف الأصوات المتعددة في خطابه الشعري.

كلمات مفتاحية: الفيتوري، قلق، الانتماء، الاغتراب، الهوية

Anxiety of Belongingness in the Poetic Discourse of Al-Faytouri

Yasin Ibrahim Bashir Ali
Faculty of Art – King Faisal University – Kingdom of Saudi Arabia
ysn3ysn71@gmail.com

Abstract

This research aims to study the anxiety of belongingness in the poet Mohammad Al-Faytouri and its impact on his poetry. This anxiety which has emerged early in the life of poet, and has deeply affected in his creativeness, and in the enrichment of his poetry experience in its different phases. In other word, this research tries to provide an answer to the important question which is the role of unnatural circumstances, such as moving and expatriation and distributed identity, in forming Al-Faytouri's creative thinking and its role in the richness and diversity of his experience.

The research consists of an introduction and two sections, address the concept of belongingness, and the circumstances that arouse in Al-Faytouri until he became anxious that has emerged in his poetic creativity, and has contributed to highlight and detect multiple voices in his poetic discourse.

Keywords: Alienation, Anxiety of Belongingness, Al-Faytouri, Identity**.**

المقدمة :

منذ صدور ديوانه الأوّل (أغاني أفريقيا) في العام ١٩٥٥ بصوته المختلف شكلاً ومضموناً مثّل الشاعر محمّد مفتاح الفيتوري حضوراً لافتاً في الساحة الأدبية والنقدية العربية. فقد قدّم الفيتوري نفسه من خلال هذا العمل وثلاثة أعمال أعقبته _عاشق من أفريقيا، اذكريني يا أفريقيا، ومسرحية (سولارا)_ بشكلٍ مختلفٍ، ذلك أنّ الشاعر طرق في هذه الدواوين قضيةً لم تكن مطروقةً من الشعراء العرب، هي قضية أفريقيا بإنسانها وتراثها وتاريخها ومعاناتها الشاخصة الكبيرة. ما حدا ببعض الدارسين أن يطلق عليه شاعر أفريقيا، باعتباره أوّل شاعر عربي يتماهى مع الواقع الأفريقي وقضاياه، لكن الناظر في تجربة الفيتوري الكلّية يظهر له بجلاء ثراء هذه التجربة وسَعَة أمدائها، حيث لم يكن الصوت الأفريقي الوتر الوحيد الذي عزفت عليه قيثارته الشعرية، فقد أجاد الفيتوري العزف على أكثر من وتر، وأتحف قرّاءَ شعره بأكثر من نغمةٍ وصوتٍ، ليس أقلّها الصوت القومي العربي، الصوت الوطني، والصوت الإنساني بأبعاده العاطفية وأجوائه الروحية. هذا السجال الشعري والتنوُّع الإبداعي أنتجته عوامل متباينة أبرزها الظروف غير الطبيعية التي عاشها الشاعر طوال حياته، وأهمّها الارتحال الدائم، والتغرُّب في أكثر من وطن، وهُجْنة الدم العربي والزنجي في عروقه، وما أفرزه ذلك من قلقٍ لديه تجاه انتمائه وهويّته.

المقاربة التي تقدِّمها هذه المقالة هي البحث في علاقة هذا القلق، قلق الانتماء بإبداعه الشعري، ومدى ما أضافه لتجربته، ودور سؤال الهويّة في تعدّد الأصوات في خطابه الشعري. وفق منهجٍ وصفيٍّ تحليليٍّ يُسائل النّص الشعري للفيتوري، ومقولاته النظرية لعلّه يظفر بالإجابة.

الفيتوري وقلق الانتماء:

حين فتح الفيتوري عيْنيْه على الحياة، أبصر مأساته الخاصّة، كان وهو ما يزال صبيّاً يحمل في قلبه إحساسه الخاص بالتفرُّد والغربة والخوف "لقد كان كلّ شيءٍ حوله يؤكِّد أنّ التفرُّد والعذاب والغربة، أشدّ الصفات التصاقاً بواقعه البيئي والاجتماعي والنفسي" (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٦) (Al-Faytouri, 1979, P. 6)، فمنذ طفولته الباكرة لم تعرف حياة الفيتوري الاستقرار والأُلفة، كانت فسيفساء من الأعراق والأمكنة والأحاسيس، فميلاده في العام ١٩٣٠ كان في بلدة (الجنينة) بغرب السودان، في أسرةٍ اختلط فيها الدم العربي الزنجي من جهةٍ، والسوداني الليبي المصري من جهةٍ أخرى (الموسى، ١٩٧٩، ص ٦–٩) (Al-Musa, 1979, P. 6–9) يقول الفيتوري "أنا حصيلة دماءٍ مختلطة... ولقد رضعت من أثداء مختلطة، ولذلك لم يكن بإمكاني أن أكون غير ما أنا عليه"(صالح، ١٩٨٤، ص ٢١٨) (Salih, 1984, P. 218). ما لبثَتْ هذه الأسرة أن انتقلت به إلى مدينةٍ الإسكندرية، وفي هذه المدينة التي عاش فيها الفيتوري طفولته وصباه بدأت معاناته مع سواد بَشْرته ونظرات السخرية والاحتقار التي تحاصره، (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٦) (Al-Faytouri, 1979, P. 6) ، ونال قسطاً من تعليمه، ثم انتقل إلى كلّية دار العلوم بالقاهرة، فتركها هي الأُخرى مفضِّلاً العمل بالصحافة على الدراسة الجامعية، (الفيتوري، ١٩٧٩، ص١٨) (Al-Faytouri,) 1979, P. 18 من حينها لم يكف الفيتوري عن الارتحال والتنقّل بين العواصم العربية المختلفة. في ظلِّ هذه الظروف، برزت لدى الشاعر قضيّةٌ وجوديةٌ، هي قضية الانتماء، فأهاجت في دواخله قلقاً جعله يبحث عن الحقيقة في اليقظة المبكّرة ... لقد كان في منتهى التوهُّج، كان متوتِّراً إلى حدِّ الاحتراق كما يقول عن نفسه (الفيتوري، ١٩٧٩، ص١٣–١٤)-(Al-

(Faytouri, 1979, P. 13-14. هذه الحقيقة التي يصبو إليها الشاعر ضاعت بين جدّه وجدّته وأبويْه، فكان يريد أن يعرف جذوره وأصوله ومنابته. فهل هو سوداني أم ليبي أم مصري؟ (صالح، ١٩٨٤، ص ٢١٨) (Salih, 1984, P. 218)، وهذا لا شكّ وضْعٌ أخذ الفيتوري في طريقٍ طويلةٍ من البحث والكشف عن راحةٍ، لعلّه يجدها في انتمائه الضائع، ما أثّر عميقاً في إبداعه وفي رؤيته الشعرية. لكننا قبل أن نقف على هذا الأثر، ومداه في تجربة الفيتوري، نقف عند مفهوم الانتماء.

فما الانتماء؟ وكيف أثار قلق الشاعر، وتجلّى في إبداعه الشعري؟

الانتماء في اللغة يعني: الانتساب، أنميته: عزوته ونسبته، وانتمى هو إليه انتسب، (الأفريقي، د.ت، "مادة نمى") (Al–Afrigi, N.D, "Numa") وفي الاصطلاح: هو شعور الفرد بكونه جزءاً من مجموعةٍ أشمل، كالأسرة أو القبيلة أو الجنس... ينتمي إليها وكأنّه ممثِّلٌ لها، أو متوحِّدٌ معها أو يتقمّصها، ويحسُّ الفرد بالاطمئنان والفخر والرضا المتبادل بينه وبينها، وكأنّ كلّ ميزةٍ لها ميزته الخاصّة، (ذيب، ٢٠١٠، ص ٤٥) (Deep, 2010, P.45) فالإنسان كما يرى "ألفرد أدلر" كائنٌ اجتماعيٌّ منتمٍ إلى الآخرين، وأنّ الرغبة الحقيقية في انتماء الفرد وارتباطه بالآخرين هي نوعٌ من التعويض لما يستشعره الإنسان من ضعفٍ طبيعي، (ذيب، ٢٠١٠، ص٤٥)P.45 (Deep, 2010,) ولهذا حين يدأب الفرد في البحث عن انتمائه فهو في الواقع يبحث عن ذاته وخَلاصه، وتحرير نفسه من العزلة. فالاقتراب من الآخرين يساعد على خفض حدّة القلق، وتخفيف تأثير الإجهاد العقلي والنفسي، بينما تؤدّي إعاقة الشعور بالانتماء إلى الشعور بالوحدة والاغتراب، وتسبِّب الشعور بالإحباط، (دعبس، ٢٠٠٨، ص ٧) (Deibis, 2008, P. 7)

هذا القلق المتولِّد من الشعور بالوحدة والغربة قلقٌ إبداعي، يشحذ قريحة الفرد، ويدفعه إلى المزيد من التطلُّع، وعدم القناعة بشيء؛ (قديد، ٢٠١١، ص ٣٦٦) (Qidade, 2011. P. 366) لأنه _ بطبيعته _ انفعالٌ يمتاز بجانبٍ معرفيٍّ دائماً على حدّ قول جيروم كاغان. (كاغان، ١٩٨٣، ص ١٠٤) (Kagan, 1983, P. 104) فالنفس المبدعة لا تقتات من سكونها بقدر ما تقتات من اضطرابها وحركتها الموّارة بالمشاعر المتعاركة، ومن هنا تتضارب المعاني. ولعلّ هذا ما نجده عند الفيتوري الذي دعاه إحساسه بالقلق إلى الخروج من عزلته، والبحث عن ذاته المتميِّزة، ومحاولة فرضها، مما وضَعَه في درب أصالته. فالفيتوري ونتيجةً لوحدته وغربته المكانية والنفسية، لابدّ أنه شعر بحزنٍ كبيرٍ، وبقلقٍ عميقٍ، لكنّ هذا الحزن وهذا القلق لم يجعلاه يهرب بعيداً ويستريح، بل ولّدا لديه ردّة فعلٍ جعلته يقهر غربته بإنتاج عيشه من جديد، وجعلاه يجابه هذا الواقع بالبحث عن ينابيع القوّة في داخله، فوجدها في الشعر الذي عَبَر به إلى واقعٍ أكثَرَ رحابةٍ.

وفي إطار ممارسة الفنّ الشعري، يؤكِّد الفيتوري أنّ هذا الفنّ ليس نوراً يضيء دروب الحائرين فحسب، وإنّما هو أيضاً نار يصطلي بها الشعراء من أمثاله، الذين خُلِقوا من طينةٍ مختلفةٍ:

يا خالق الإنسان من طينة
وخالق الفنّان من طينة
عذّبتني بالفنّ
عذّبتني بهذه النار السماوية (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٢٠١) (Al-Faytouri، 1979, P. 201)

ويدرك أنّ الشعور بالدمامة الذي شقيَ به في صغره، لم يكن غير شعورٍ زائفٍ، وأنّ "اللون الذي سرق منه أحلى أيام صباه، كان مجرّد شرارةٍ خبّأت وراءها الحريق الذي بداخله" (الفيتوري، ١٩٩٢، ص ١٣) (Al-Faytouri, 1992, P. 13)، فشقاؤه الحقيقي سببه حساسيةٌ زائدةٌ مصدرها قلقه المقيم تجاه انتمائه، فأضحت هذه الحساسية ضرورةً فنّيةً، بل تعويذة لا يُتصوّر إنجاز فعلٍ إبداعيٍّ ذي قيمةٍ من دونها:

لم تشقني دمامتي في الورى
لم تشقني إلا حساسيتي
فهذه النار من قسمتي
رضيتُ أن أفنى على وهجها
لكي يعيش الفنّ في مهجتي (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٢٠١) (Al-Faytouri, 1979, P. 201)

إذن فقد صار دوران رَحَى فنّ الشاعر، مرهوناً بهذه الحساسية، والتي ما فتئ يستبقي عوامل وجودها، ومن أهمّها الغربة والغضب.

أما الغربة فقد ظلّ الشاعر يستبطن من خلالها ذاته القلقة بحثاً عن الحقيقة التي يرتضيها ويطمئن إليها، فصار الاغتراب ألصق شيءٍ بحياته، يمارسه بعشقٍ كبيرٍ، يسكن في مدائن الرحيل، وفي قوافل الهجرة المتعبة، فيطرق كل يوم أبواب مدينةٍ جديدةٍ في رحلةٍ لا تنقطع، وغربةٍ هي دنيا الشاعر التي لولاها لاختار الموت في وطنه:

وصرختُ حين تلوّت الغربة
بي في ضفائر شعرها الوثني
يا أوّل الدنيا وآخرها
لولا هواكِ لَمتُّ في وطني (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٤٧٧) (Al-Faytouri, 1979, P. 477)

وأما الغضب الذي ولّدته ظروف الشاعر الخاصّة، فقد كان بمثابة الزلزال الذي يغمر الفيتوري بالشعر، يغلي في دمه ويكتوي بناره صباح مساء، ولأنّ الفيتوري كان دائماً _ كما يقول _ في حالة غضبٍ، فإنّه دائماً في حالة شعر (صالح، ١٩٨٤، ص ١٤٤) (Salih, 1984, P. 144). من ثمّ كانت الكآبة _ التي هي إحدى نتائج الغربة والغضب_ عشيقة الشاعر، وأنيسته التي لا يطيق فراقها، تخلع ثوبها على قصائده، وتطلّ في ابتسامته، أو هي كما يقول:

ستبقى لي عشيقتي الكآبةْ
تخلع ثوبها على قصائدي
تدور بي راقصةً في حفلتي الفقيرةْ
تجلس في دنياي حيث تشتهي
فهي على دنياي يا أميرتي أميرةْ (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٤٨٣) (Al-Faytouri, 1979, P. 483)

هكذا تنشأ لدى الفيتوري علاقةٌ جدليةٌ بيْن وجوديْن: وجود القلق، ووجود الإبداع، لا يظهر الثاني إلا في حضور الأوّل، أو بصورةٍ أكثر دقّةٍ لا يتجلّى وجوده الإبداعي إلا في ظلّ تجلّي حالة القلق لديه، فحينما تغيب هذه الأحاسيس والمشاعر أو تقلُّ حدّتها، يغيب الإبداع، وقد ذكرنا أنّ الشاعر كان شديد الحرص على استبقاء

هذه الأحاسيس متوهجةً، تغذّيها مشاعر الغربة والغضب، حتّى لا يفقد بوصلة إبداعه، وصلته به. وهذا في حدّ ذاته ظاهرةٌ غريبةٌ، فَقَدَر هذا الشاعر لكي يبدع أن يتغرّب ويغضب ويتعذّب. فمن المفارقات الغريبة أنّ الفيتوري جاء إلى بلده السودان في بدايات النصف الثاني من القرن العشرين بعد صدور ديوانه الأوّل أغاني أفريقيا عام ١٩٥٥، استقرّ فيه بضعة أعوام، عمل خلالها في الصحافة، فرئس تحرير أكثر من صحيفةٍ يوميةٍ، ومجلةٍ أسبوعيةٍ، وخاض غمار أكثر من تجربةٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ، تزوّج وأنجب، ما يعني أنّه عاش حياةً طبيعيةً على المستوى الوظيفي والاجتماعي، لكنّ حياته على المستوى الإبداعي كانت شيئاً آخر، كانت أكثر فترات عمره ضحالةً وجفافاً، لم تثمر شيئاً في مجال الشعر. يصف الفيتوري هذه الظاهرة والتي لم تكن نتيجة قصور ذاتي، أو ضمور في الموهبة، وإنما مردّها كما يقول "إلى أنّي عشتُ تلك الأعوام كلّها خارج ذاتي، لم أكن أتكلّم لغتي، ولا أفكّر برأسي، ولا أرى بعيني، كنت غريباً في وطني...هكذا وجدتني وقد مات فيَّ كلّ شيء، أقصد امتدّت الصحراء على روحي، فلم تَنبت فيها شجرةٌ واحدةٌ خضراء" (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٣٢-٣٣) (Al-Faytouri, 1979, P. 32-33)

هكذا يصف الفيتوري هذه الظاهرة، ظاهرة انقطاعه عن الشعر، أو بالأصح انقطاع الشعر عنه، وهي ظاهرةٌ يمكن تفسيرها في ضوء العلاقة الجدلية بين قلقه وإبداعه، ففي وطنه السودان تصالح الشاعر مع نفسه، ومع محيطه الاجتماعي، حيث انتفت الفوارق الطبقيّة والاجتماعية، فلم يعد سواد بَشْرته ميزةً خاصّةً به وسط مجتمعه السوداني أسمر اللون، والأهمّ من ذلك انتفت غربة الشاعر وأحاسيس الحزن والغضب التي كان يعيشها، وكل الظروف غير الطبيعية التي شكّلت شخصيته، تلك الظروف التي كانت تغذّي حساسيته أو قلقه الذي لم يعد له وجود. فمن أين يتدفّق إبداع الشاعر وقد جُفِّفت ينابيعه؟ ولأنّ حياة الشاعر ووجوده في الشعر، بدأ مرّةً أخرى رحلة البحث عن صوته الضائع، ومحاولة استرجاعه، فعاد إلى الغربة، وعاد إليه الشعر، وتوالت مجموعاته الشعرية. وهذه لا شكَّ مفارقةٌ تُثير سؤالاً مهمّاً حول إمكانية تصوُّر وجود شاعر بقيمة الفيتوري خارج إطار هذه الظروف، أو على أقل شاعر في تميُّز الفيتوري وتفرُّده باللون الذي ميّز تجربته، لو لم يعشْ وطأة هذه الأحاسيس، أحاسيس الغربة والقلق تجاه أسئلة الانتماء والمصير.

قلق الانتماء وتعدُّد الأصوات

نعلم أنّ الإبداع الشعري حالةٌ وجدانيةٌ خاصّةٌ، وعرفنا مما سبق أنّ وجدان الفيتوري شكّلته ظروف غير عادية، أساسها التغرّب والتوتُّر والقلق، قلق الباحث عن انتمائه، وتوتّر الباحث عن أدوات فنّه وإبداعه، أو كما يقول هو قلق الراكض وراء سراب الحقيقة، وتوتُّر المشدود إلى النماذج العلوية للجمال، (الفيتوري، ١٩٩٢، ص ١٣) (Alfaytouri, 1992, P. 13) وقد كان الفيتوري متفطّنٌ إلى أنّ مكمن هذا القلق، ظروفه الخاصّة بإيقاعاتها الاجتماعية والنفسية، يقول "أنْ أُولد في وطنٍ، ثم تتمدّد أغصاني في وطن، ثم تجتاحني الغربة في وطن ثالثٍ، حيث لا يتشكّل انتمائي إليه، إلا بقدر ما يتشكّل انتماؤه إلى ذاتي، أنا هذا الراحلُ أبداً من أفقٍ إلى أفق، المقيم في التناقضات والتفاصيل المجهولة... تُرى هل كان لكلّ هذه الأشياء مجتمعةً تأثيرها الطاغي على شخصيتي وطموحي وشعري وارتباطاتي؟ هل أملك إلا أن أضع إصبعي على فمي؟"(الفيتوري، ١٩٩٢، ص ٦-٧) (Al-Faytouri, 1993, P. 6-7)

وقد أعان هذا الإدراك الفيتوري في تبصُّر دربه، وجَعَلَه يستشرف وطناً أكبر يستعيده، يتحرّرُ فيه من إسار الجغرافية، وطناً بحجم الأرض والناس والأشياء، وجده في أفريقيا التي خصها بدواوينه الثلاثة الأولى:

(أغاني أفريقيا، عاشق من أفريقيا، وأذكريني يا أفريقيا)، ووجده في العروبة التي كتب فيها ديوانه: (يأتي العاشقون إليك)، وفي التصوُّف الذي أبدع فيه ديوانه: (معزوفة لدرويش متجوّل)، وفي المرأة التي تمددت في أغلب دواوينه الشعرية، وخصها بقصائد عديدة منها: إلى امرأةٍ عاشقة، لقاء، الشك، هواها وغير تلك من القصائد، فتعدّدت لذلك الأصوات في خطابه الشعري. لقد كان قلق الفيتوري قلقاً خلّاقاً أضاف إلى نفسه وعياً ذاتياً عميقاً، حال بينه وبين أن يتحوّل إلى مجرّد لا منتمي، كما أضاف إلى تجربته عناصر إبداعٍ وإلهامٍ غير مطروقةٍ. صحيح أنّ الشاعر في بادئ أمره عاش إحساساً طاغياً بالضياع، جعله لا يستشعر انتساباً حقيقياً إلى وطن كما يقول محمود أمين العال (العالم، ١٩٧٩، ص٤١) (Al-Aalim, 1979, p. 41)، وقد ظهر ذلك عنده في أشعار البدايات:

يا ليتني فــراش نحــلٍ جناحاه عــلى هيكله شعــلتان
يعيش في منعطفات الشذى فوق حدود الوهم فوق الزمان
يا ليت قلبي قلبه ويدي جناحه وموطني اللا مكـــــان (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٢٠٠) (Faytouri, 1979, P. 200)

لكن الفيتوري سرعان ما تجاوز هذه المرحلة حين وجد نفسه في قلب أفريقيا، متأثراً بحركات التحرُّر التي كانت تمور بها هذه القارة، خاصّةً في شقِّها الفكري والإبداعي الذي برز فيما عُرف ب (حركة الزنوجة) التي قادها مجموعة من المفكِّرين والمبدعين ذوي الأصول الأفريقية في الغرب*، أمثال: لانجستون هيوز في أمريكا، والشاعر المارتنيكي أيمي سيزار، والشاعر السنغالي ليوبولد سنغور في فرنسا، وغيرهم. هادفين إلى مقاومة الاستعمار الذي كان يسعى "إلى حمْل النموذج الغربي ليحلَّ محل الواقع الزنجي بما تختزنه ذاته من تاريخ وذاكرة، وكأنّ أفريقيا أرضٌ خلاء" (السولامي، ٢٠٠٨، ص ١٤٢) (Al-Solami, 2008, P.142). فجاءت مقاومتهم من خلال هذه الحركة التي هدفت إلى "المحافظة على العِرْق الأسود، ومنع ذوبانه في الكيانات الاستعمارية البيضاء" (السولامي، ٢٠٠٨، ص ١٤٣) (Al-Solami, 2008, P.143). فظهر صوت الفيتوري الأفريقي حين وجد ضالته في هذه الحركة وفي أفكارها التحررية، يدفعه إلى ذلك شعورٌ حادٌّ للقفز فوق واقعه الاجتماعي المأزوم، فلم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى تلبّسته حالة الانتماء والانتساب لهذا البلد، وصارت تتحكّم فيه تحكُّما غريباً، فقد تعلّق بها تعلّقاً لا حدّ له، فغدت أفريقيا له وطناً وجد فيه ذاته المهدرة، وانتماءه الذي ضاع في زحام مدينة الإسكندرية، وتوزّعته هموم الغربة، وحاجز الشكل، ولون الإهاب، فهام فيها عشقاً، وصاغ هذا الهيام قصيداً في تاريخ أفريقيا، وفي مأساتها الشاخصة، ممثّلةً في المستعمر الأبيض الذي جثم على صدرها، وسلب خيراتها، وسام شعوبها ذلّاً ومهانةً. فكان الصوت الأفريقي هو أوّل صوتٍ ذي ميزةٍ خاصّةٍ، وبرؤيةٍ مختلفةٍ، خرج به الشاعر على الناس، محاولاً من خلاله تأكيد ذاته، والنظر إليها من الداخل، متوِّجاً ذلك بدمج همومه الفردية بهموم القارة وإنسانها المُضطهد.

ففي هذا الصوت يُشعرك الفيتوري أنّ رحلة الحياة عنده بدأت لتوّها من أفريقيا، التي يحسّ معها لأوّل مرّةٍ بقيمته، وقيمة هذه الحياة، التي يَستطعم عذابها لأجل أفريقيا، ويعرف من خلالها مغزىً لتغرُّبه وتشرُّده:

لكنّني منذ مشتْ عواصف الحنين في دمي
ومنذ أزْهرتْ براعمُ الكلام في فمي

ومنذ انطلقتُ ضائعاً مشرّداً
كنتِ عذابي أنتِ يا أفريقيا
وكنتِ غربتي التي أعيشها
وشئتُ أن أعيشها (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٣٣٤) (Al-Faytouri, 1979, P. 334)

فحبّه الكبير لهذا البلد وحنينه إليه هو الذي قاده إلى دروب الإبداع، وأنطق شيطانه الشعري:

وحينما غنيتُ غنيتُ لعينيك
ومسّت شفتي في ولَهٍ رموشها (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٣٣٥)
(Al-Faytouri, 1979, P. 335)

لقد تماهى الشاعر في أفريقيا تماهياً تامّاً، صارت على إثره رمزه الأكبر لخلاصه الداخلي، ووسيلته للارتباط شيئاً فشيئاً بالواقع الموضوعي الكبير، وعودة الثقة إلى نفسه، الثقة بنفسه، والثقة بالإنسان وبالحياة (العالم، ١٩٧٩، ص٤٩) (Al-Aalim, 1979, p. 49).

وهو في غمرة تماهيه في أفريقيا التي تغذَّى قلقه العميق بقلقها الكبير، تذوب الحواجز بينهما، فيتّحد بها، ويمتزج فيها، ويشكّلان معاً وحدةً أسطوريةً رامزةً، شعارها الغبن والشعور بالمهانة والعذاب، حينها تستعير لسانه، ويستعيرُ هو صوتَها الذي يعبِّر عن دواخله أصدق تعبير، فينفعل له، ويهتز اهتزاز المغرور، لمَ لا، وصوت أفريقيا هو صوته، وهو صوت الإله:

هذا الذي يَهزُّني هزَّ الأعاصير صداه
أحبّه لأنّه صوتي أنا
صوتك يا أفريقيا
صوت الإله (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٣٣٨) (Al-Faytouri، 1979, P. 338)

لقد ذوَّب الفيتوري نفسه في أفريقيا، منفعلاً بقضايا شعوبها التي صاغ منها قضيةً إنسانيةً كبرى، عمادها الدعوة إلى التحرّر، واحترام الذات الإنسانية، ليحمل المأساة الأفريقية التي هي مأساته في الصميم، ويجعل نفسه ممثلاً لها، ومتحدّثاً بلسان ملايين السجناء خلف الجلدة السوداء، والظلم والغبن المسيطر على هذه القارة العذراء، التي عاشت طويلاً تحت حكم المستعمر الأبيض الذي عاث فيها فساداً، مستقلّاً خيراتها، ناهباً كنوزها، مستخدماً أبناءها كعبيد (مهران، د.ت، ١٣٠/ Muhran. N.D, P. 130). يصدر في كلّ ذلك عن صدقٍ كبيرٍ. فالفيتوري على الرغم من قناعته بأنّ لسانه العربي يحول بينه وبين الجمهور الأفريقي الذي ما يزال يبحث عن لسانه الخاص، وأنّ صوته الذي يظهر من خلال هذه القضية المختلفة والجديدة على الواقع العربي، ربما لن يجد الصدى المأمول لدى الجمهور العربي، ومن ثَمَّ جاءت نبرته الحزينة "لقد كنتُ أحسُّ أنني طائرٌ يغنِّي خارج سربه، خارج سرب الشعراء، أنا أغنّي أحزاناً غير أحزانهم" (صالح، ١٩٨٤، ص ٢٣٧) (Salih, 1984, P. 237) لكنه _ أي الفيتوري _ وعلى الرغم من هذا واصل زحفه بإخلاص؛ ذلك لأنّ علاقته بأفربقيا لم تكن علاقةً ذهنيةً صنعها فكره الواعي، بل كانت علاقةً وجدانيةً عاطفيةً تمتدُّ في وعيه ولا وعيه، عبَّرت عن نفسها باكراً

في خطابه الشعري، يقول " لم أتحدّث عن الإنسان الأسود من باب الفضول، ولا من باب البحث عن عنصر إلهامٍ جديدٍ، لقد تحدّثتُ عنه بوصفي أحد أبناء تلك القارة المظلمة، وأحد المدافعين عن إنسانها، فغصتُ بإحساساتي إلى واقعي النفسي المأسوي، واقع إنسانٍ متمرّدٍ، رافضٍ، إنسان متطلّع إلى حياةٍ خاليةٍ من العبوديّة" (صالح، ١٩٨٤، ص ١٥٨-١٥٩) (Salih, 1984, P. 158-159).

وقد استطاع الفيتوري من خلال هذه العلاقة استنبات الإبداع العربي في أفريقيا السمراء، والتي طالما تجاهلها طويلاً بالرغم من وجوده التاريخي بالقرب منها أو بداخلها، وذلك من خلال إعادة الاعتبار لهذه القارة ولإنسانها في القصيدة العربية المعاصرة. لم يكن هذا الحضور الأفريقي هامشياً أو طارئاً عنده، بل كان حضوراً فاعلاً ومؤسِّساً لتجربته الكلّية. ولهذا لم يلتفت الفيتوري إلى غير أفريقيا في تلك المرحلة من تجربته الشعرية، بل ظلّ يوظّف كل إمكاناته الإبداعية في حثّ شعوب القارة على النضال والثورة، فيشيد بثوراتها وثُوّارها الذين أعادوا للقارة تاريخها الضائع، وهويّتها المستلبة، إلى أن يُتوّج كفاحهم بالنصر:

أصبح الصبح فلا السجن ولا السجّان باق (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٤٣٢) (Al-Faytouri, 1979, P. 432)

وإلى أن يأتي اليوم الذي يغنّي فيه مع شعوبها أنشودة الحريّة:

أبداً ما هنتِ يا أفريقيا يوماً عــلينا

بالذي أصبح شمساً سطعت ملء يدينا (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٤٣٣) (Al-Faytouri, 1979, P. 433)

إنّها الشمس التي غابت عن سماء أفريقيا طويلاً، شمس الحرية التي أطلّت تحمل النور والبشرى لشعوب القارة بقدوم يوم الحصاد، ولحظة القِطاف التي طال انتظارها، ليحصد الشعب الأفريقي نضاله تحرُّراً من أغلال الخارجي المستعمر، والداخلي الأسى والضعف والانهزام:

أصبح الصبح لنا خلفك يا صبح الحصادِ

ألف صبحٍ قد نسجناه بأضواء العيون

أيُّها القادم محمولاً على سُمر الأيادي

يا حصاد العرق الدامي وميراث الجهادِ (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٤٣٤) (Al-Faytouri, 1979, P. 434)

الأمر الذي أحال هذا الشعب بعد أن كان بالأمس يقتات الخرافة، ويستمرئ الخمول، أحاله أسطورةً تُلهم الشعوب أسرار الحياة، وتُلهم الشعراء أسرار القول:

يا مُلهم الشعراء أروع شعرهم يوم التحدّي

ماذا أقدّمه إليك؟

وأنت كلّ الشعر عندي (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٤٤٥) (Al-Faytouri, 1979, P. 445)

هكذا أسعفت الفيتوري في التعبير عن الهمِّ الأفريقي قريحةٌ مُتّقِدةٌ، أذكى أوارها حالة القلق التي أهاجتها أسئلة المصير والانتماء، هذه الحالة التي تمثّل قضية الشاعر الوجودية، فلم تكن قضيةً هامشيةً لديه، أو وافدةً على ذاته، بل نبعت من داخله المشبوب بأحاسيس التغرُّب والفقد، ومشاعر الحزن والغضب التي اجتاحته منذ

الصغر. ولهذا حين وجد أفريقيا أبصر طريقه في الحياة، ووجد ذاته، أو هكذا بدا له، متجاوزاً في شعره كلْ ما عداها، مانحاً لها ثلاثة دواوين ومسرحية شعرية، تمثّل حجر الزاوية في تجربته الإبداعية.

لقد تعدّدت الأصوات الشعرية عند الفيتوري، لكن الظروف التي أحاطت به وشكّلت حياته وشخصيته، جعلته ولمدةٍ غير قصيرةٍ يسمعنا صوتاً واحداً، هو صوت أفريقيا في الشعر العربي الحديث، ونظراً لغرابة هذا الصوت، وجدتَه للشاعر سلاحاً ذا حدّين، جلب له الشهرة والصيت، وأثار عليه في الوقت ذاته موجاتٍ عنيفةٍ من الرفض والانتقاد، فوُصف بالمبالغة، ورُميَ بالحقد والكراهية. وإذا كان هذا صحيحاً، فماذا ننتظر من شاعرٍ ومُثقّفٍ أسودٍ فتح عينيه على الحياة ليعانق التغرّب في أكثر من بلدٍ من بلدان العالم المتخلِّف كما يقول وفيق خنسة (خنسة، ١٩٨٥، ص٩٩) (Khunsah, 1985, p. 99)، فيرى العيون تحاصره أينما حلّ، ويجد مآسي الإنسانية متجسّدةً في هذه القارة التي يعلنُ انتماءه إليها، والتي استباحها المستعمر نهباً لثرواتها وكنوزها، وقهراً لرجالها ونسائها، فشهدت على يديه أكبر جريمةٍ عرفتها البشرية، هي جريمة استرقاق الشباب الأفريقي الذين اقتادهم المستعمر إلى مزارعه ومصانعه؛ ليبني بهم حضارته الناهضة.

أما الصوت العربي في قصائد الفيتوري فلم يظهر إلا في قصائد ما بعد السبعينيات من القرن الماضي، بالرغم من أنّ الظروف التي مرَّ بها العالم العربي كانت لا تختلف كثيراً عن تلك التي عاشتها أفريقيا من استعمارٍ وتخلّفٍ وامتهانٍ لكرامة الإنسان، الأمر الذي يطرح سؤالاً جدّياً حول سبب تأخّر هذا الصوت.

من الواضح أنّ توجّه الشاعر نحو أفريقيا ليس سببه قتامة الواقع الأفريقي وحده، ومحاولة التعبير عنه، فهذه القتامة قسمةٌ مشتركة بين الواقعيْن الأفريقي والعربي، لكن يبدو أن هذا الأمر يتعلّق بشيءٍ آخر. ففي دواوينه الثلاثة الأولى _أغاني أفريقيا، عاشق من أفريقيا، اذكريني يا أفريقيا_ نكاد لا نعثر على أيِّ صدىً للوجود العربي، بل في هذه الدواوين ما يشبه الرفض للحضور العربي، إن لم نقلْ الدحض للدم العربي في عروقه، وذلك من خلال تأكيده مرّةً بعد أخرى على زنجيته، وهذا في حدِّ ذاته ليس صحيحاً بصورةٍ مطلقةٍ، فقد عرفنا من أصول الشاعر التي انحدر منها، ومن مصادر ثقافته أنّ هُجنة الشاعر _إثنياً وثقافياً_ واقع لا يمكن إنكاره، وهو ما يؤكّده الشاعر إذ يقول "لا أستطيع أن أضع نفسي في غير قائمة الشعراء العرب" (صالح، ١٩٨٤، ص٢٦٦) (Salih, 1984, P. 266). ولذا نرى أنّ هذا النزوع الأفريقي الخالص لدى الفيتوري، والتأكيد على زنجيته في تلك المرحلة المبكرة من حياته، يعود إلى بنائه النفسي الذي شكّلته عوامل خاصّة، قِوامها الحزن وقلق الانتماء. فذهب إلى أفريقيا يبحث عن وطنٍ ضائعٍ يستعيده. وعلى إثر ذلك تأخّر تشكُّل ملامح تجربته المكتملة، وتأخّرت رجعته للواقع العربي. لكنّه حين عاد، كانت عودته شبه نهائية، أنْستْ الشاعر أفريقيا، التي لم يلتفت إليها بعدُ إلا لماما، وفي مناسباتٍ محدودةٍ ومتفرقةٍ.

لقد تنبّه الفيتوري أخيراً إلى أنّ أفريقيا التي منحته الثقة بنفسه، والشعور بذاته وبحرِّيته حبسته طويلاً داخلها، وآن له أن يتحرّر من هذا الحبس، وربما كان لتحرّر أفريقيا من الاستعمار، الدور الراجح في لفت الشاعر إلى تحرير نفسه من هذا الحبس الاختياري. وقد كان في تحرّره إضافةً مهمّةً لتجربته الشعرية التي اتّسعت لتشمل الإطار العربي، وتتعداه إلى كل ما هو روحي وإنساني. ولا شكّ أنّ اتّساع آفاق ثقافة الشاعر، واتّساع تجاربه في الحياة، أمدّته بقدرةٍ أكبر على الاستبصار، والرؤية الموضوعية، ذلك أنّ ما ظلّ ينادي به من حريةٍ وعدالةٍ وكرامةٍ إنسانية للشعوب الأفريقية، هو عين ما يفتقده الواقع العربي، ولذلك فإنّ هذه القيم هي ذاتها

التي عذَّبت الشاعر في بيئته العربية حين عاد إليها، فأكثر ما آلمه في الواقع العربي هو الاستبداد والظُلم والخذلان الذي قاد إلى طوفان من الهزائم والانكسارات. ففي بلاده العربية، أنظمةٌ:

حاملةً هي سرَّ الرسالةْ، وشمس العدالةْ
وقادرةً هي تمسخ روح الجمالْ
لا تعرف الحقَّ
أو تعرف العدلَ
أو تعرف الاستقالةْ (الفيتوري، ١٩٩٢، ص٢٠-٢١) (Al-Faytouri, 1992, P. 20-21)

الأمر الذي أفرز واقعاً مأساوياً، عماده الجشع والخوف، وسَمْته الذلّ والادّعاء، واستمراء سكون الشعوب المسحوقة:

أزمنةٌ تكنز الفقر خلف خزائنها، وسكون جريحْ
وأشباح موتى من الجوع
تخضرّ سيقانهم في الرمالْ
تيْبس ثم تقيحْ
ومجدٌ من الكبرياء الذليلة
والكذب العربي الفصيحْ (الفيتوري، ١٩٩٢، ص٢٠-٢١) (Al-Faytouri, 1993, P. 20-21)

ومن ثمّ يقف الفيتوري طويلاً مع قضيةٍ طالما عُرفت بقضية العرب المركزيّة، فيروعه خذلانها وضياعها بين فرسان عهد الوفاق، وأنظمةٍ عربيةٍ بَنَتْ الأساطيل، لتتركها بعيداً وتقصف عدوّها بالإذاعات والأغاني المسلّحة، وتترك شعباً أعزلاً يواجه مصيره، وأطفالاً سلاحهم الإيمان بالحقّ والحجارة التي يواجهون بها آلة الموت:

ليس طفلاً وتمائمْ
إنّه روح فلسطين المقاومْ
إنه الأرض التي لم تخن الأرضَ
وخانتها الطرابيش وخانتها العمائمْ
إنّه الحقّ الذي لم يخنِ الحقَّ
وخانته الحكوماتُ وخانته المحاكمْ (الفيتوري، ١٩٩٢، ص٥٥) (Al-Faytouri, 1992, P. 55)

تسلّح الفيتوري في عودته للواقع العربي بحساسيةٍ كبيرةٍ ضد الظلم من أيِّ جهةٍ كان، وبإيمانٍ راسخٍ بدور الشعراء بوصفهم طليعة مثقفة تستلهم الجماهير التي هي مصدر طاقة الفنّ والفكر والحياة، وتلهمها، فالشاعر العربي المعاصر أيّاً كان موقفه ملتزماً واقعياً، أو ذاتياً محض الذاتية، فهو _برأي الفيتوري_ منتمٍ بشكلٍ أو آخر إلى وجود هذه الأمّة، وإلى نضالها المصيري، وإلى واقعها المأساوي المُعاش، أكثر من ذلك أنه منتمٍ

اجتماعياً إلى قاعدتها العريضة... وجوهر الانتماء وحقيقته، أن تتكوّن لدى الشاعر القناعة بالانتماء عن طريق التجربة العملية، وممارسة الإحساس به، (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٤٤٥) (Al-Faytouri, 1979, P. 445)

لكنّ هذه العودة للواقع العربي أيضاً تُثير سؤالاً آخر حول سبب هَجْر الفيتوري لأفريقيا، وتعلّقه بواقعٍ طالما جفاه طويلاً على الرغم من قربه منه. ونعتقد أنّ هذا الموقف لا يمكن النظر إليه بمعزلٍ عن الظروف الخاصّة التي شكّلت الفيتوري، وبالتالي لا يمكن النظر إليه على أنه أمرٌ عاديٌّ، ومصدر كونه ليس أمراً عاديّاً أنّ الشاعر الذي ظنّ أنّه وجد ذاته في أفريقيا، وجد نفسه مرّةً أخرى بعد غناءٍ كثيرٍ لأفريقيا، أنّها لم تحقّق له الراحة والخلاص الذي كان ينشده، وإنما كانت جسراً عَبَر به من مرحلة التيه والضياع إلى مرحلة أخرى، منحته قدراً من الثقة والطمأنينة، لكنّها لم تخلّصه تماماً من قلقه الكبير حيال انتمائه الضائع، الذي كان وما يزال هو قضية الشاعر المحورية. ولعلّ الناظر في قصائده المتأخّرة يلحظ في بعضها نبرة حزنٍ عميقةٍ تدلّ على حقيقة لأنه ما يزال يبحث، وما يزال ينتظر، لعلّ الشمس تُشرق من جديد. ففي قصيدته " رؤيا " التي كتبها في الرباط عام "١٩٨٩"، يقول:

خارجاً من دمائك
تبحث عن وطنٍ فيكَ
مستغرقٍ في الدموعْ
وطنٍ ربما ضعتَ عنه خوفاً عليه
وأمعنتَ في التيه كي لا يضيعْ

ثم يقول:

لا شيء إلا انتظار مريرْ
وانحناءٌ حزينٌ على حافَّة الشعر
في ليل هذا الشتاء الكبير (الفيتوري، ١٩٩٢، ص١٥٠) (Al-Faytouri, 1992, P. 150)

فهل يا ترى وجد الفيتوري هذا الوطن الضائع؟ أيّاً كانت الإجابة عن هذا السؤال، فإنّ الفيتوري ما يزال يدأبُ في تشييد هذا الوطن في عوالمه الشعرية على سبيل الاستعادة والتعويض عن حالة الفقد التي يعيشها، فيتجه تارةً إلى أفريقيا وتارةً إلى العروبة، وأخرى إلى التصوّف، وهكذا دواليك.

أمّا الصوت الإنساني في شعر الفيتوري فقد خرج من رحم معاناة الشاعر الذاتية، ومعاناة الشعوب التي ينتسب إليها في أفريقيا والبلاد العربية. صحيح أنّ في خطاب الفيتوري الكثير مما يُفصحُ عن شاعرٍ ثائرٍ عاش شعور الثائرين وتعذّب بعذابهم، لكنّ هذا العذاب لم يُفلح في انتزاع ذاته الإنسانية التي أرهقتها هذه المعاناة. ولذلك خرج هذا الصوت الإنساني مبثوثاً في أثناء شعر الزنوجة والعروبة على حدٍّ سواء، كما شكّل حضوراً لافتاً في مرحلة ما بعد أفريقيا في شعره الروحي والعاطفي، خاصّةً في ديوانه: (معزوفة لدرويش متجوّل الذي صدر في العام ١٩٦٩). ولهذا نرى المعركة لدى الشاعر لم تتوقف عند حدودها الأفريقية أو العربية فحسب "بل أصبحت معركة قيمٍ إنسانيةٍ عامةٍ، معركة بين استعمار وشعوب، بين طغاةٍ وأحرار ثائرين" العالم، ١٩٧٩، ص٤٩) (Al-Aalim, 1979, p. 49) فصار لذلك شديد الحساسية تجاه الظلم، شديد الاحتفال بقيم الحرية والكرامة الإنسانية، فهو بقدر ما يحضُّ على الثورة والانتقام، هو كذلك يدعو إلى المحبّة والوِئام:

واضـــــمـــــم يديـــــــك إلى يـــــــــديّ * نُشد معاً صرح المحبة بيننا شَيْد

إيّاك لا تزرع حقولك عوسجاً * إنّي زرعتُ حقـــــوليَ الـــوردا (الفيتوري، ١٩٧٩، ص٨٧)

(Al-Aalim, 1979, p. 49)

ويمكن أن يُفاجِئك صوت الفيتوري الإنساني من حيث لا تتوقّع، فيخرج من فوّهة بركان غضبه، وهو في ذروة هياجه الثوري، حين يتساءل:

فلماذا المجاعةُ، والدمُ، والصرخاتُ

لماذا الحروبُ؟

لماذا الجنون؟ (الفيتوري، ١٩٩٢، ص١٥٤) (Al-

(Faytouri, 1992, P. 154

أمّا ديوانه (معزوفة لدرويش متجوّل)، فيمثّل لحظة صفاءٍ لا مثيل لها، إذ هو أشبه بعروجٍ نحو المطلق. وقد يكون الشعر الذي أُبدع فيه في هذه المرحلة، من أكثف وأصفى الشعر لقدرته على شمول متناقضات الحياة شمولاً أشبه باختراق الحجب والكشف عن بصيرة العاشق الصوفي الثائر (صبحي، ١٩٨٠، عدد ١٦) (Subhi, 1980, N.16). ولعلّ أبرز ما يميّز هذا الديوان بالإضافة إلى أنه يعبّر عن مرحلةٍ مهمّةٍ من مراحل تسامي الشاعر بعذابه الفردي، أنّه يمثّل علامةً فارقةً في تجربة الفيتوري الشعرية، لا سيما في بُعدها الروحي من خلال شعره الصوفي، وبُعدها العاطفي من خلال شعر الحبّ. وفي البعديْن كان ديدن الشاعر هو التساؤل، والسعي نحو الكشف، والبحث عن الحقيقة المجهولة. فتجربته الصوفية لم تكن تجربة انذهالٍ وعماء، وإنّما هي تجربةٌ صوفيةٌ ثوريةٌ، تعبّر عن موقفٍ إنسانيٍّ إيجابي مدركٍ وواعٍ، وليس موقف الدرويش المنجذب إلى مجموعة من الأفكار المشوّشة، والأحاسيس التجريدية العمياء، (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٣٤) (Al-Faytouri, 1979, P. 34)

يقول:

ويحي، وأنا أتلعثم نحوك يا مولاي

أُجسِّد أحزاني

أتجرّد فيك

هل أنت أنا؟ يدك الممدودة أم يدي الممدودة؟

صوتك أم صوتي؟ (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٤٥٤) (Al-

(Faytouri, 1979, P. 454

أمّا الحبّ عند الفيتوري فهو تجربةٌ إنسانيةٌ مفعمةٌ بالحياة، تتجاوز طرفيْه _ رجل وامرأة _ إلى الآخرين، فهو حين ينظر إلى المرأة، فإنما ينظر إليها ليستشفّ من خلالها معاناة الفقراء، وليغسل كآبتهم بالنور وعبق الزهور:

لو أقدرُ كنتُ ملأت حديقتنا الجرداءْ

بالزنبق بالدِّفليِّ

وكنتُ غسلتُ كآبات الفقراءْ

من أجلك يا عينيّ

ولكنّي لا أملك إلا الكلمة في شفتيَّ (الفيتوري، ١٩٧٩، ص ٤٦٩) (Al-Faytouri, 1979, P. 469)

فالحبُّ تجربةٌ تلتقي في النهاية مع تجربة الفيتوري الكلّية في استبطانها للجوهري من غير الركون للظاهري، وفي قلقها الكبير وبحثها الدائب عن الوطن المفقود الذي ظلّ على الدوام مصدر حزنٍ لا ينضب للشاعر، يقول الفيتوري "حبيبتي التي أهدي إليها كتاباتي هي الأرض، والناس، والأشياء، وحين أعانقها لا أجد بين أحضاني غير الحزن. إنّ الفنّان الحقّ هو الذي لا يعتزل قضايا الوطن" (الفيتوري، ١٩٧٧/١/٧) (Al-Faytouri, 7-1-1977) وهو لهذا حين يتوقف عند المرأة لا يتوقف للارتواء الجسدي، ولا للنظر إليها من حيث أنّها امرأة، وإنما الذي يعنيه منها هو ما تُثيره في نفسه من رغبة المعرفة والاكتشاف، ذلك لأنّها لم تكن مجرّد امرأة، بل كانت تعبيراً عن أمّةٍ، وتندمج بروح الثورة كما يقول (صالح، ١٩٨٤، ص١٣٧) (Salih, 1984, P. 137)

إذن، فتجربة الفيتوري الكلّية في أبعادها المختلفة: الأفريقي والعربي والإنساني، هي في الواقع تجربة بحثٍ وكشفٍ عن الحقيقة، تجدّدت في أُطرٍ مختلفة، لكنّها عبّرت في عمومها عن روحٍ خاصّةٍ، شكّلتها عوامل خاصّة، هي عوامل الغربة والفقْد والقلق.

الخاتمة:

سعت الدراسة إلى تقديم رؤيةٍ كلّيةٍ لأثر الظروف التي أحاطت بالشاعر محمد مفتاح الفيتوري، وأثارت لديه قلقاً كبيراً من انتمائه، ومدى الأثر الذي تركه هذا القلق في خطابه الشعري، فخلصت إلى النتائج الآتية:

- الفيتوري شاعرٌ مختلفٌ، أحاطت به ظروفٌ خاصّةٌ لعبت دوراً حاسماً في تشكيل شخصيته الإنسانية، وأهاجت لديه قلقاً كبيراً تجاه مصيره وانتمائه، منها ما هو إثني مرتبطٌ بهُجنة الدم العربي والزنجي في عروقه، ومنها ما هو مكاني مرتبطٌ بالوطن الذي ينتسب إليه، ومنها ما هو ثقافي مرتبطٌ بالمصادر والروافد المعرفية والثقافية التي نهل منها، ومنها ما هو اجتماعي مرتبطٌ بالوسط الذي نشأ فيه.
- القلق من الانتماء الذي أثارته هذه الظروف الخاصة، كان دوره حاسماً في توجّه الشاعر الإبداعي، وفي رؤيته الشعرية، فبعد أن عاش الشاعر مدّةً من حياته إحساساً بالفراغ والضياع، ولّد لديه هذا القلق هاجس استعادة الوطن المفقود، والبحث عن الذات المهدرة، فأخذه هذا القلق إلى مجاهل أفريقيا منقّباً عن جذورٍ وأصولٍ، وعاد به إلى الواقع العربي باحثاً عن ذاتٍ وهويّةٍ، ونزع به نحو الإبداع الصوفي الذي يجسّد بوتقةً مثاليةً للانصهار الثقافي بين ما هو عربي وما هو زنجي أفريقي، متسامياً به نحو قيمٍ إنسانيةٍ عامةٍ قضيتها الإنسان أينما وُجد وعلى اختلاف جنسه وبيئته.
- كان أثر قلق الفيتوري حيال انتمائه كبيراً في إثراء تجربته الشعرية، وعميقاً في تجذُّرها وتنوُّعها، فبسببه أكثر الشاعرُ من الركضِ وراء سراب الحقيقة الضائعة، فأكثر الركضَ في مضمار الإبداع، وبسببه تناسلت الأصوات وتعددت في خطابه الشعري، فقد خرجت صافيةً، مفصحةً عن نفسٍ معذَّبةٍ قلقةٍ، عبّرت عن ذاتها بصدقٍ وإخلاصٍ كبيريْن في منتوج الفيتوري الشعري.

المصادر والمراجع

_ ابن منظور، (د.ت) لسان العرب، دار صادر للنشر، بيروت.

_ التوم، حسن صالح، (٢٠٠٢)، الاتّجاه الأفريقي في الشعر السوداني المعاصر، ط١، سولو للطباعة والنشر، الخرطوم.

_ خنسة، وفيق، (١٩٨٥)، جدل الحداثة في الشعر، دار الحقائق للطباعة والنشر، بيروت.

_ دعبس، يسري، (٢٠٠٨)، ثقافة الانتماء وكيفية تحقيقها، الناشر: الملتقى المصري للإبداع والتنمية، الإسكندرية.

_ ذيب، عايدة، (٢٠١٠)، الانتماء وتقدير الذات في مرحلة الطفولة، دار الفكر، عمان، الأردن.

_ السولامي، إبراهيم، (٢٠٠٨)، الاغتراب في الشعر الحديث، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

_ صالح، نجيب، (١٩٨٤)، محمّد الفيتوري والمرايا الدائرية، ط١، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان.

_ صبحي، محي الدين، (١٩٨٠)، مجلة الفكر العربي، العدد ١٦.

_ الفيتوري، محمد مفتاح، (١٩٧٩)، ديوان الفيتوري، (ط٣)، المجلد الأول، دار العودة، بيروت.

_ الفيتوري، محمد مفتاح (١٩٧٩)، ديوان الفيتوري، (ط٣)، المجلد الثاني، دار العودة، بيروت.

_ الفيتوري، محمد مفتاح، (٧ يناير ١٩٧٧) الملحق الثقافي، جريدة " العلم ".

_ الفيتوري، محمد مفتاح، (١٩٩٢)، يأتي العاشقون إليك، دار الشروق، القاهرة.

_ قديد، ذياب، (٢٠١١)، المتنبي بين الاغتراب والثورة، عالم الكتب الحديثة، إربد، الأردن.

_ كاغان، جيرم، (١٩٨٣)، نمو الشخصية، ترجمة: صلاح الدين المقداد، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق.

_ مهران، رشيدة، (١٩٧٩)، الواقعية واتجاهاتها في الشعر العربي المعاصر، (ط١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

Bibliography

_ Ibn Mundhour,(N.D) *Lesan Alarab*. Beirut.Dar Sader Publishig**.**

_ Al-Faytouri, M. Muftah, (7January1977), Cultural Attaché, Al-Alam newspaper.

_ Al-Faytouri, Mohamed Muftah, (1979). *Dewan Al-Faytouri*. 3rd Edition. vol. 1. Beirut.Dar Al- Awda.

_ ----------. Dewan Al-Faytouri, vol. 2. Beirut Dar Al- Awda, Beirut.

_ ----------(1992).*The lovers come to you*. Cairo. Dar Al-shorouk, Cairo.

_ Atom, H. Salih, (2002). The African trend in contemporary Sudanese poetry, (I. 1) **Alienation** Solo printing and Publishig.

_ Deep, A. (2010), belonging and self-esteem in childhood. Jordan. Dar Alfekir, Oman.

_ Deibis, Y. (2008). The culture of belonging and how to achieve it. The Egyptian forum Creativity and Development, Alexandria.

_ Kagan, J.(1983). personal growth, translation by Salah Al-Din Al-Miqdad, publications of the Ministry of Culture and National guidance, Damascus.

_ Khunsah, W. (1985). *Controversy of modernity in poetry*. Beirut. Al-Haqaiq for printing and publishing.

_ Qidade, D. (2011). *Al-Mutanabi between Alienation and Revolution*. Jordan.Modern books world.

_ Muhran, R. (1979). Realism and her trends in contemporary Arab poetry, (I. 1) Egyptian general organization for writers.

_ Salih, N.(1984). Mohamed Al-Faytouri and circular mirrors, (I. 1). Lebanon. Addar Alarabia.

_ Solami, I. (2008). *Alienation in Modern Poetry*. Rabat. Al-maaref Aggadidah press.

_ Subhi, M. (1980).Arab thought magazine, No.16.